

## نحو أنثروبولوجيا الاتصال (مقال مترجم) Towards An Anthropology Of Communication (translated article)

خالد بومخيلة<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> جامعة الجزائر 3 (الجزائر)، boumekhila.khaled@univ-alger3.dz

تاريخ النشر: 2025/09/30

تاريخ القبول: 2025/09/21

تاريخ الاستلام: 2025/06/23

### ملخص

يتناول المقال أحد فروع الأنثروبولوجيا التي تهتم بالبحث في العلاقات الاتصالية، حيث تركز على ثلاث محاور متداخلة اللغة، الثقافة والمجتمع، بالاعتماد على الأساليب المنهجية الإثنوغرافية الميدانية، وهو توجه يعتمد على تصور أوسع للاتصال باعتباره أداة للثقافة يتجسد في تفاصيل الحياة اليومية، وهو ما يبرز في هذا المقال المترجم لأحد أعمدة الأنثروبولوجيا التواصلية Yves Winkin، حيث يستحدث عبر كتاباته منظورا جديدا للاتصال تميز فيه العناصر الثقافية والاجتماعية لتتجاوز النماذج التقليدية لنقل المعلومات، أين ينطلق من نقد النموذج التلغرافي إلى الدعوة لتبني النموذج الأوركستالي الذي يرى التواصل كتناغم جماعي تتفاعل فيه كل الأطراف، ويركز الباحث في حقل أنثروبولوجيا الاتصال على أهمية الميدان، إذ يتعين على الباحثين الاهتمام بدراسة القطع الصغيرة المشكلة للمدينة، كرسيف المحطة، المقهى، الحديقة العمومية وغيرها من أماكن التفاعل اليومي، حيث ينبغي ملاحظة السلوكيات التي تحدث هناك ووصفها بأقصى قدر ممكن من الدقة في سجل الملاحظات، ولذلك، فهذا المقال إطارا نظريا ومنهجيا لمهم التواصل الإنساني بوصفه ثقافة قيد التنفيذ، متجاوزة في ذلك النماذج الكلاسيكية للاتصال.

**الكلمات المفتاحية:** إيف وينكين؛ أنثروبولوجيا الاتصال؛ النموذج الأوركستالي؛ الإثنوغرافيا؛ التفاعلات اليومية.

### Abstract :

The article discusses a branch of anthropology that focuses on communicative relationships, with attention to three main themes: language, culture, and society. This branch relies on field ethnographic methods to study communication as a cultural tool that appears in the details of daily life. The article, translated by researcher Yves Winkin, one of the pioneers of communicative anthropology, presents a new vision of communication that combines cultural and social elements,

going beyond traditional models of information transmission. Winkin criticizes the telegraphic model of communication and advocates the adoption of the orchestral model, which sees communication as harmonious group interaction. It also emphasizes the importance of field study of everyday places such as stations, cafes, and public parks, where researchers are asked to carefully observe behaviors. The article presents a theoretical and methodological framework for understanding human communication as a living culture that goes beyond classical models.

**Keywords:** Yves Winkin; Anthropology of communication; Orchestral model; Ethnography; Everyday interactions.

## بيانات المقال

Winkin, Y. (2016). Vers une anthropologie de la communication. Eds J. Dortier *La Communication : Des relations interpersonnelles aux réseaux sociaux* (p. 97-104). Éditions Sciences Humaines. [Doi: 10.3917/sh.dorti.2016.02.0097](https://doi.org/10.3917/sh.dorti.2016.02.0097).

## مقدمة:

برزت أنثروبولوجيا الاتصال كمقاربة حديثة لفهم التفاعلات الإنسانية من خلال الثقافة والسياق الاجتماعي، وفي البيئة الأكاديمية الأوروبية، والفرنكوفونية بشكل خاص، كان الباحث إيف وينكين Yves Winkin شخصية محورية في تطوير هذه المقاربة، حيث يربط التوجه الفكري لوينكين بين الرؤى الاجتماعية العلمية الأمريكية والتقاليد الأوروبية، فقد ساعد في إدخال أفكار علماء مثل ديل هايمز، وإيرفينج جوفمان، وغريغوري باتيسون إلى السياق الفرنسي، ومن خلال عمله، لم يعد يُنظر إلى التواصل على أنه مجرد نقل للمعلومات بمفهومه التقليدي، بل أصبح يُفهم على أنه عملية اجتماعية أساسية، فهو أداء ثقافي يتطلب استكشافًا إثنوغرافيًا، وفي مقالته المؤثرة *Vers une anthropologie de la Communication*، يقدم الباحث وينكين وجهة النظر هذه ويضع الأساس لنموذج جديد في دراسات الاتصال.

وتكمن المساهمة العميقة لوينكين في النموذج الأوركستراي للاتصال "Orchestral model"، والذي يقارنه بالنموذج الخطي التقليدي أو التلغرافي "Telegraphic model"، حيث نجد أن النماذج الكلاسيكية لا سيما نموذج الإرسال لشانون وويفر Shannon and Weaver تتعامل مع الاتصال باعتباره إرسالًا أحادي الاتجاه لرسالة مشفرة من المرسل إلى المستقبل، في حين يبتعد نموذج وينكين الأوركستراي جذريًا عن هذه الفكرة، فهو يشبه التواصل بأداء جماعي يقوم فيه العديد من المشاركين، مثل الآلات الموسيقية في

الأوركسترا، بتنسيق أعمالهم بشكل مستمر ومتزامن لإنتاج تفاعل هادف، فلا توجد هنا رسالة واحدة تتحرك عبر قناة واحدة، وبدلاً من ذلك، يتحقق التواصل من خلال قنوات وإشارات متعددة في وقت واحد (الكلام، والإيماءات، والنظرة، والصمت، وما إلى ذلك)، وكلها متشابكة في السياق، ويؤكد هذا على مدى تعقيد الأحداث التواصلية، فالمعنى ينبثق من التفاعل المتزامن **synchronized interplay** للعديد من الإشارات وليس من الانتقال الخطي البسيط للمعلومات، ومن خلال اقتراح النموذج الأوركستراي، يسلط وينكين الضوء على طبيعة الاتصال التفاعلية والديناميكية والمعتمدة على السياق والتي تفشل النماذج الكلاسيكية في التقاطها.

وفي سياق متصل، يضع وينكين هذا النموذج ضمن سلالة فكرية أوسع أعادت صياغة مفهوم الاتصال في منتصف القرن العشرين، وهو يعتمد على وجهة نظر ديل هايمز الإثنوغرافية للتواصل كنمط التحدث الذي تحكمه الثقافة، وعلى رؤية إيرفينغ جوفمان بأن التفاعلات وجهًا لوجه هي "طقوس" منظمة للحياة اليومية، كما أنه يعتمد على المنظور النظامي لغريغوري باتيسون، والذي يتجلى في تركيز مدرسة بالو ألتو Palo Alto على السياق، وردود الفعل، والقواعد الضمنية للتفاعل، إضافة إلى البحث الرائد الذي أجراه راي بيردويستيل حول الإشارات غير اللفظية في اللقاءات الاجتماعية، وتعمل هذه التأثيرات مجتمعة، على تعزيز إعادة التوضع النظري لوينكين، فبدلاً من عزل رسالة أو وسيلة واحدة، يُفهم الاتصال على أنه حدث شامل تشكله شبكة من الإشارات والسلوكيات ووجهات النظر المشتركة، ومن خلال نسج هذه الخيوط، تتجاوز أنثروبولوجيا وينكين للتواصل الحدود التخصصية، وتتعامل مع كل تفاعل باعتباره أداء يتضمن معنى للثقافة، يحول هذا النهج التركيز من توصيل شيء ما إلى استكشاف كيفية تواصل الناس وخلق المعنى داخل بيئاتهم الثقافية.

وعلاوة على ذلك، يركز وينكين في مقالاته أيضاً على الابتكار المنهجي "Methodological Innovation" والأمثلة الملموسة، حيث يقدم أنثروبولوجيا الاتصال باعتبارها "طريقة

لإجراء البحث" وليس مجالاً فرعياً ثابتاً، فهي في الأساس موقف تحليلي تجاه الحياة الاجتماعية، ويجمع هذا الموقف بين النظرة النظرية المنفتحة والتكاملية والمنهج الإثنوغرافي الدقيق، وبناءً على ذلك، يبرز المقال ممارسات مراقبة وتحليل الاتصالات في بيانات حقيقية، ويوضح كيف يمكن للعمل الميداني الدقيق القيام بمشاهدة وتسجيل التفاصيل الدقيقة للمحادثة والإيماءات والمساحة والسياق ، مما يسمح بالكشف عن القواعد الاجتماعية الضمنية التي تنظم السلوك التواصلي، فعلى سبيل المثال، بالاعتماد على تحليل جوفمان الجزئي للتفاعل، يوضح وينكين كيف أن الحركات التفاعلية التي تبدو تافهة (نظرة سريعة، توقف مؤقت، تغيير في النغمة) نمطية وذات معنى، وهي تربط ترتيب التفاعل بالبنية الاجتماعية الأوسع، ويقدم النص مشاهد توضيحية وملاحظات تجلب النموذج الأوركستراي إلى الحياة، من تنسيق المتحدثين والمستمعين في الحوار إلى الكوريغرافيا "Choreography" غير المعلنة للأجساد في المحادثة، وبالتالي، فإنه من خلال هذه الرسوم التوضيحية التجريبية، يقدم وينكين حجة مقنعة مفادها أن النهج الأنثروبولوجي ينتج رؤى غنية حول التواصل، فمن خلال الانغماس في الأحداث التواصلية كما يفعل المرء في ثقافة أجنبية، يمكن للباحثين الكشف عن كيفية عمل التواصل كإنجاز جماعي ذو شكل ثقافي.

إن ترجمة مقال إيف وينكين إلى اللغة العربية هي أكثر بكثير من مجرد مسعى لغوي، فهي تمثل مساهمة ذات قيمة علمية في مجال دراسات الاتصال في السياق الأكاديمي العربي، حيث تشكل أنثروبولوجيا الاتصال التي نقلها وينكين أثراً هاماً في الدراسات الفرنكوفونية، مما يجعل مفاهيمها الأساسية تستحق المشاركة في نطاق أوسع خارج الحيز الجغرافي للباحث، فجعل هذا العمل في متناول العلماء الناطقين بالعربية من شأنه أن يثري الخطاب الفكري من خلال تقديم منظور يربط بشكل معقد بين التواصل والأنثروبولوجيا، كما يوفر للباحثين في العالم العربي فرصة للانخراط في نهج متعدد التخصصات يركز على الثقافة ويكمل ويتحدى النماذج السائدة في نظرية الاتصال، وبالتالي توسيع الأدوات المنهجية والمفاهيمية المتاحة داخل التخصص.

## التعريف بصاحب المقال:

إيف وينكين Yves Winkin بروفييسور وباحث أنثروبولوجي ولد في 29 جانفي 1953 بمدينة Verviers ببلجيكا، اهتم في بداياته الفكرية بأعمال العالم السوسيولوجي Erving Goffman خلال مساره التعليمي بجامعة بنسلفانيا بأمريكا أواخر السبعينات، وقد اشتغل الباحث في ثلاث مجالات وهي الاتصال الجديد، أنثروبولوجيا الاتصال وسوسيولوجيا غوفمان، وللباحث العديد من الأعمال الفكرية البارزة خاصة ما تعلق بموضوع هذا المقال "أنثروبولوجيا الاتصال" حيث نجد كتاب **La nouvelle communication** (1981) ترجم هذا العمل للعديد من اللغات، حاول الباحث في هذا العمل تطوير نموذج الاتصال من النموذج التلغرافي الكلاسيكي إلى النموذج الأوركستراي كما تحدث فيه عن مدرسة Palo Alto، الكتاب الثاني المهم في مسار الباحث هو كتاب **Anthropologie de la communication** (1996) أين قدم فيه الأساسيات المنهجية والنظرية للعمل الأنثروبولوجي في مجال الاتصال وهو يعتبر مرجع أساسي للباحثين الذين يشتغلون على أنثروبولوجيا الاتصال، بالإضافة لذلك، فقد طور مفهوم "السحر الحضري" **enchantement** الذي يتناول وسائل الاتصال غير اللفظية والارتباط المكاني-الثقافي في المدينة.

## ترجمة نص المقال:

في عام 1967، نشر عالم الأنثروبولوجيا واللغويات الأمريكي ديل هيمز Dell Hymes نصا بعنوان "أنثروبولوجيا الاتصال"<sup>1</sup>، إلا أنه لم يقترح تأسيس علم جديد وقال إنه يريد ببساطة أن يشير إلى أن الأنثروبولوجيا يجب أن تأخذ في الاعتبار التعاريف "المحلية" للاتصال، في المجتمعات الحديثة، مصطلح "الاتصال" يعني إما تبادل المعلومات بين شخصين أو نقل الرسائل من قبل وسائط الإعلام، ولكن ماذا عن السياقات الأخرى؟

فعلى سبيل المثال في ثقافة هنود الأوجيبوا Ojibwa، لهم اعتقادات مسلم بها بأن الآلهة تتحدث إلى الرجال من خلال ضربات الرعد، وأن الأحجار في الصحراء هي علامات رتبته الآلهة لمساعدة الرجال في تحديد مسارهم، ويقول بأن شعب الزوني القديم Zuni بإمكانهم إعادة ترجمة عويل ذئب البراري في الليل وسردها إلى الصغار.

ووفقا للباحث هيمز، فإنه إذا كانت كل هذه الحقائق تنتمي لحقل التواصل، فمن الضروري إذا إدراج "اقتصاد التواصل" في أي مجتمع كان كل الأعضاء الفاعلين فيه والذين يعزو لديهم نوايا للاتصال (الآلهة، الأموات، الحيوانات وغيرها) وكل الوسائل المتاحة لهم (البرق، الحجارة، الحظائر وما إلى ذلك) للتحدث إلى الرجال أو مع بعضهم البعض، "وفي أي ثقافة أو مجتمع يكتب فإن السلوك والأشياء المنتجة المرتبطة بالسلوك (بالتصنيع أو التمهين) يتم تنظيمها بشكل انتقائي، واستخدامها والتردد عليها، وتفسيرها وفقا لقيمتها التخاطبية والتواصلية، وأي سلوك وأي موضوع يمكن أن يكون اتصاليا، ونطاق إمكانات التواصل أوسع بكثير وأكثر أهمية مما يكشف عنه اهتمامنا بالخطاب اليومي"<sup>2</sup>.

وبطبيعة الحال، يختلف مرجع السلوكيات والأشياء ذات القيمة التواصلية من مجتمع إلى آخر، والأمر متروك للأنثروبولوجي لإعادة تشكيل "إقليم" الاتصال تدريجياً في المجتمع الذي يدرسه، ولم تكتمل هذه المهمة قط لأي مجتمع، لكن النداء الذي وجهه هيمز يبقى أساسياً، وذلك راجع لثلاثة أسباب.

ففي المقام الأول، هو فتح تعريف الاتصال بإدراج النية المنسوبة إلى المرسل من جانب المتلقي، بحيث يمكن للمرسل أن يكون إله، ورسالته يمكن أن تكون في شكل حجر، أما السبب الثاني ذكر الباحثين في ميدان الاتصال بأن الأنثروبولوجيا من الممكن أن توفر لهم أساليب نظرية ومنهجية مختلفة تماماً عن تلك التي اعتادوا عليها (وخاصة تحليل المحتوى المطبق على الرسائل الإعلامية).

وأخيراً، فقد شكلت أعمال هيمز مجالا جديدا للبحث يستحق أن يدرج في علوم الإعلام والاتصال، وهذا هو الهدف الذي يضعه العديد من الباحثين في فرنسا وأماكن أخرى بأنفسهم، حيث يعيدون نشر مفهوم الاتصال، وبالتالي الأماكن التي يمكن مراقبتها وطرق استثمارها.

ولا يتوقف البحث أبدا في إعادة تشكيل مفهوم "الاتصال"، لأننا نعود دوماً إلى نفس البديل، بين رؤية ضيقة للاتصال وأخرى أكثر شمولية.

### الثقافة كاتصال

التعريف الأول هو تعريف ملائم وكلاسيكي: فهو يعزل الاتصال باعتباره مجموعة من الطرائق المحددة والصريحة لنقل المعلومات، وفي الحياة اليومية، نتحدث عن التواصل كظاهرة إرسال واستقبال الكلمات والرسائل والإشارات والصور.. إلخ، والبحوث المتخصصة في مجال الاتصال التي تتماشى إلى حد كبير مع هذا المنظور كعلم اجتماع وسائط الإعلام، وعلم نفس التفاعلات، واستشراف التكنولوجيات الجديدة، لا تزال تستخدم سواء في عملها النظري لبناء "نماذج" أو في تحليلاتها، التعريف "التلغرافي" للاتصال، أي: مرسل A يرسل رسالة X إلى مستقبل B وذلك بفضل وسيط Z، إلخ. ويمكن أن تتغير المصطلحات لكن النموذج الأساسي يبقى هو نفسه.

وتوسيع هذا النموذج يعني اختيار الصعوبة، لأن الحس السليم بها متقلب أو لأن البحوث لم تشرع في هذا المسار إلا نادرا، فهي مسألة تصور الاتصال ليس كظاهرة محددة ومحدودة، ولكن كمفهوم متكامل، مما يجعل من الممكن التفكير بشكل مختلف في العلاقات بين الفرد والمجتمع، وبين المجتمع والثقافة.

وفي هذا المنظور الأوسع نطاقا، يمكن تعريف الاتصال بأنه مجموع الأعمال التي تنفذ يوميا "البنيات structures" والتي تشكل مجتمعا، أي ثقافته، وتشكل جميع المستجدات الثقافية في الألف خطوة وخطوة للحياة اليومية "الاتصال".

ويتعين على الباحث الذي يخاطر بإعادة التأسيس هذه أن يزيل بسرعة عقبة كبرى تتمثل في: "الاتصال باعتباره أداة للثقافة" فهو تعريف مجرد، ومن الصعب معرفة مدى ارتباطه بتعدد الحقائق التي يشكلها، حيث من المرجح أن يتم رفضه من نظرائه من الباحثين وحتى من القراء.

لذا، يجب الإشارة إلى مؤسسي مفهوم التواصل الموسع: فقد أصبح باحثو "المدرسة غير المرئية Collège invisible" للاتصال الجديد، أو أعضاء مدرسة بالو ألتو Palo Alto التي أصبحت صيغتها الرمزية (لا يمكن للمرء ألا يتواصل) مشهورة في فرنسا، وهذا يعني أن أي عنصر من عناصر الزمان والمكان والوضع الحاضر في حياتنا من المرجح أن يكون عنصرا من عناصر الاتصال.

ولقد أوضح عالم الأنثروبولوجيا راي بيردويستيل Ray Birdwhistell هذا بمثال حي: "إن أي طالب لا ينتظر في الغالب مكالمات هاتفية في مسكنه بالليل يعرف جيدا كم يكون الهاتف على الوضع الصامت صاخبا"، وكان يشير إلى الممارسة المنتشرة على نطاق واسع في الجامعات الأميركية لاجتماع حفلة الجمعة Gala بين الطلاب، وفي هذا السياق، الهاتف الذي لا يرن هو رسالة فعالة وتتمثل فكرة Birdwhistell في إظهار أن الاتصال لا يقتصر على النقل المتعمد للمعلومات الشفوية، فهناك توقعات معينة للثقافة، وإذا لم تتحقق، فهذا يعني شيئا.

وتنتفتح هذه الملاحظة على مفهوم لا حدود له تقريبا لما يحتمل أن يكون مكونا للاتصال، فإذا كان الهاتف في الوضع الصامت قادر على "قول" شيء، فإن العديد من الأشياء الأخرى قادرة على القول أيضا، وبالتالي فإن الاتصال عند Birdwhistell ليس مقتصرًا على الرسالة ولا حتى على التبادل أو التفاعل بل هو يشمل النظام، والسياق الذي يجعلها ممكنة ويمكن أن يحمل عدم حدوث قيمة معلوماتية تعادل رسالة تم تسليمها بشكل صريح ، ومع ذلك ، تجدر الإشارة إلى أنه في الممارسة العملية ، ركزت نظرية جماعة بالو ألتو على ديناميك

الزوجين والأسرة، على الرغم من أن غريغوري باتيسون Gregory Bateson، الذي كان المؤسس الفكري للحركة فكر بشكل أعم، كعالم أنثروبولوجيا للنظم الانسانية. وبدون التوصل إلى تعريف شامل، فإن هذه الرؤية الأوسع نطاقا للاتصال من الممكن أن تتسم بخمسة مبادئ:

التواصل ظاهرة اجتماعية: حيث يتم دمج كل عمل من أعمال نقل الرسائل في مصفوفة أكبر بكثير، قابلة للمقارنة في امتدادها إلى الثقافة، هذه المصفوفة هي التي تتلقى اسم التواصل الاجتماعي، وهي تتكون من مجموعة الرموز والقواعد التي تمكن وتحافظ على انتظام وقابلية تنبؤ التفاعلات والعلاقات بين أفراد الثقافة الواحدة، فالفرد ينظر إليه باعتباره فاعلا اجتماعيا، ومشاركا في وحدة ينتهي إليها.

المشاركة في الاتصال: ويتم ذلك بأساليب متعددة لفظية وغير لفظية، والتي يمكن أن تكون موضوعا لمقاربات محددة: الشبه لغوية، التقريبية، الحركية واللمسية، وفي معظم الأحيان فإن أنشطة الاتصال هي أنشطة التحكم والتأكيد والتكامل، أين يلعب التكرار دوراً هاماً. وبالتالي فإن المضمون أقل من السياق، والمعلومة أقل من المعنى، وهو ما يسعى الباحث في مجال الاتصال الاجتماعي إلى تعريفه.

التعمد لا يحدد الاتصال: فعندما يتحدث شخصان بلغة معينة، فإنهما يشاركان في نظام كان موجوداً قبلهما، وسيبقى بينهما، وبعبارة أخرى، فإن الفعل الذي يتم تنفيذه في الوقت الحاضر من التفاعل هو مجرد لحظة واحدة في حركة أكبر بكثير: تلك الخاصة بالثقافة كتدفق للمعلومات.

التواصل الاجتماعي يخضع لإدراك صورة الأوركسترا: يتشابه تشارك أعضاء ثقافة ما في عملية التواصل أفراد الفرقة الموسيقية في الأوركسترا، ولكن بدون وجود قائد ولا توزيع: فهي توجه بعضها البعض.

الملاحظ هو بالضرورة جزء من الأوركسترا: حتى ولو جاء من مجتمع آخر، ولذلك، فإن الطريقة الوحيدة لدراسة فعل الاتصال هي عن طريق الملاحظة بالمشاركة، بأسلوب الأنثروبولوجيين.

### الميدان، الصحيفة والبيانات

إن أنثروبولوجيا الاتصال تحمل تعريفاً طموحاً للغاية: فالاتصال يقوم جنباً لجنب مع الثقافة، ونطرح السؤال كيف يمكن تفعيل هذا المنظور؟ الإجابة: من خلال العمل بشكل دقيق للغاية على قطع صغيرة واضحة المعالم، سواء كانت أماكن عامة (رصيف المحطة)، أو شبه عامة (شرفة مقهى)، أو خاصة (صالة الأسرة)، أو أماكن العمل (استوديو تلفزيوني)، أو الإقامة (دار للتقاعد) أو أماكن الترفيه (نادي العطلة)، بحيث ينبغي ملاحظة السلوكيات التي تحدث هناك ووصفها بأقصى قدر ممكن من الدقة في سجل الملاحظات، وسنتحدث عن المنهج الإثنوغرافي لوصف هذه المقاربة، فالمنهج الإثنوغرافي المرتبط بالأنثروبولوجيا في مجال الاتصال يستند إلى ثلاث معارف أو مهارات: معرفة المشاهدة، ومعرفة كيف تكون (مع الآخرين)، ومعرفة الكتابة.

هذه المهارات الثلاثة يمكن تطبيقها على أي "ميدان" أو أي مكان أو أي مجموعة اجتماعية، فالأنثروبولوجيا المعاصرة لم تعد محددة من خلال أغراضها، ولكن من خلال الطريقة التي تنظر بها إلى الأشياء التي تقرر استثمارها، ومن خلال العلاقات التي تقيمها مع الفاعلين الاجتماعيين، كذلك من خلال الكتابة التي تستخدمها لجعل التجربة حية، وتشارك أنثروبولوجيا الاتصال مشاركة كاملة في هذا الموقف المتواضع والطموح على حد سواء، من جهة متواضع، لأن كل شيء يذهب وكل شيء يعود إلى البيانات والتي يتم جمعها تقريبا دون معرفتها من خلال كتابة مذكراته في كل يوم، ونسخ ملاحظاته، وتأملاته، وعواطفه، ومن جهة أخرى طموح لأن الهدف النهائي هو المساهمة العلمية في دراسة فعل الثقافة l'acte de culture ، بغض النظر عن الأبعاد التي نعطيها لميدان البحث، والواقع أنه من المفترض أن

"العام هو في صميم الخاص": فكلما كانت الدراسة أفضل، كلما سمحت بتفكيك أنماط الثقافة، والخصائص التنظيمية التي يقوم عليها الإنتاج اليومي للمجتمع، وفي هذا الصدد توجهت الباحثة ناتاشا آدم Natacha Adam إلى مدرسة ابتدائية متعددة الثقافات في مدينة لييج Liège ببلجيكا لمدة عام (بموافقة المعلمين بطبيعة الحال)، أين اختارت الجهة الخلفية من الفصل الدراسي طيلة عملية البحث أين لاحظت التفاعلات بين الأطفال ومعلمهم، وخلال وقت الغداء، "راقبت" ما يجري في الساحة، وكل ليلة كانت تكتب الأحداث الصغيرة لليوم في مذكراتها، وكان سؤالها الأساسي: كيف يعمل التواصل الثقافي يوما بعد يوم؟

ما هي الأساليب اللفظية وغير اللفظية التي يستخدمها الأطفال لبناء الاختلاف؟<sup>3</sup> في كتابها، تصف Natacha الشتائم التي يطلقها الأطفال مثل "أنت نتن!" وحتى رقصات "زولو zoulou" التي تعلمها الفتيات الأفريقيات الصغيرات لأصدقاءهن، والتي تثير جزع المعلمين الشديد، ما شهدته الباحثة في لييج، كان يمكن أن تعرفه في مكان آخر في أوروبا، إن لم يكن في الولايات المتحدة. بطبيعة الحال، تتمتع كل دولة بإيديولوجية مختلفة متعددة الثقافات (وسوف يكون موقف "المدرسة التكاملية intégratrice l'école" الفرنسية مثلاً واضحاً بشكل خاص)، ولكن الباحثة وجدت بعض النتائج من الدراسات الأميركية لـ Tracy Kidder<sup>4</sup> أو Shirley Heath<sup>5</sup>، إنها تتوقع العمل العظيم لجولي ديلالاند Julie Delalande<sup>6</sup>، ورغم أن عملها تم الآن وفي مدرسة صغيرة في لييج، ولكنه يسمح لنا بالتفكير في العلاقات بين الثقافات بين الأطفال بطريقة أعم بكثير.

### أنثروبولوجيا الجسم الغريب OVIN؟

هذا الرهان من التعميم أنثروبولوجيا الاتصال كأي شكل من أشكال الأنثروبولوجيا، فالعمل ينجز بصورة مجزأة ومجزأة ولكن الهدف النهائي هو تزويد القراء بالمعرفة الشاملة،

وهذا التحدي في الحقيقة هو تحدي طموح في حالة أنثروبولوجيا الاتصال لأنها لا بد وأن تواجه ملاحظة غريبة للغاية: فهي تريد أن تعمل أشياء مجهولة الهوية.

والواقع أن أنثروبولوجيا الاتصال التي اقترحها Hymes تعطي كهدف لها الاقتصاد الاتصالي لكل مجتمع، برنامج واسع لم يتم تحقيقه ولكن على الأقل يمكن للمرء أن يفهم منذ البداية ما تسعى له هذه الأنثروبولوجيا لدراسته، وفي حالة أنثروبولوجيا الاتصال "الموسع"، حيث يصبح الاتصال أداء للثقافة، لم يعد هناك أي هدف ملموس يمكن استثماره، ونطرح سؤال هل تخاطر أنثروبولوجيا الاتصال بالتلاشي في أثر النظريات النقية جداً؟ الإجابة لا، وذلك لثلاثة أسباب، أولاً، يظل هذا النهج ملموساً جداً بفضل دعمه للمنهج الإثنوغرافي، حيث تستند أنثروبولوجيا الاتصال إلى أماكن المعيشة، والأوضاع الحقيقية، والتجارب الشخصية والتي تستخلص منها دروساً حول الطرق التي يتم بها إنجاز الثقافة في الحياة اليومية، والسبب الثاني هو أن أنثروبولوجيا الاتصال لا يُعرّف على أنه علم قائم بذاته، بل يعرف على أنه إطار، منظور، شكل، يسمح بالعمل ببعض الاتساق النظري والمنهجي، فهي أنثروبولوجيا اتصالية تماماً كما يوجد أنثروبولوجيا بصرية أو إدراكية أو سيميوطيقية، فهي توفر للباحثين في الاتصال الوسائل لاستثمار أشياء أخرى غير وسائط الإعلام، كما تمنحهم الوسائل اللازمة من أجل البناء اتصالي لأي شيء يهمهم، وتسمح للباحثين بإدراك أن هذه الحرية النظرية ليست رخصة جديدة لكتابة أي شيء باسم الاتصال، وينبغي لقوة المنهج الإثنوغرافي المرتبط بالأنثروبولوجيا في مجال الاتصال أن تكبح أكثر من شخص هاوي.

والسبب الثالث في الاعتقاد بأن أنثروبولوجيا الاتصال لا تخاطر بالتبخر بمجرد ظهوره في الهواء الطلق هو إعادة الاكتشاف في إطار علوم الإعلام والاتصال التي يتولى الباحثون المسؤولية عنها، وأن هذا الأمر لا يشكل مبدئياً من قبل وسائط الإعلام والتكنولوجيات

الجديدة، وبإمكانها أن تجلب تياراً قوياً من الهواء النقي إلى عالم علمي يتميز بالاستخدام الدائم لنفس النماذج وصياغة نفس الأسئلة عن نفس الأشياء.

ومع وصول منظور "الجسم الغريب OVIN"، فإن هناك رؤوس جديدة تخاطر بالظهور، وتداول مشاريع جديدة، وسقوط للشوايت، ولهذا السبب الأخير على الأقل، فإن المغامرة الفكرية لأنثروبولوجيا الاتصال تستحق المحاولة في فرنسا.

### التحليل النقدي للمقال:

يحاول إيف وينكين في مقالته استظهار القصور في النماذج الخطية الكلاسيكية للاتصال من خلال إعادة صياغة الاتصال كعملية ثقافية وتفاعلية بشكل أساسي، أين تصور النماذج التقليدية "التلغرافية" (المستمدة من نظرية الإعلام **Information Theory**) الاتصال باعتباره نقلاً أحادي الاتجاه للرسائل من المرسل نحو المستقبل، مشيراً إلى أن الأبحاث السائدة غالباً ما تتمسك بالمخطط "التلغرافي" – على سبيل المثال: يرسل رسالة  $x$  إلى ج عبر قناة  $z$  – مما يعزل الاتصال كرسائل منفصلة يتم تبادلها ونمذجتها بسهولة، هذه النماذج، التي تجسدها نظرية الإعلام التي وضعها شانون وويفر (1949)، تقدر الوضوح والكفاءة في نقل الرسائل ولكنها تستبعد السياق الغني الذي يحدث فيه التفاعل في العالم الحقيقي<sup>7</sup>، وعلى العكس من ذلك، يتفق وينكين مع منظرين مثل إيرفينج جوفمان، وديل هايمز، وغريغوري باتيسون في الدعوة إلى مفهوم أنثروبولوجي أوسع للتواصل باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الثقافة<sup>8</sup>، حيث يرفض هذا المنظور فكرة أن التواصل هو مجرد نقل مقصود للمعلومات؛ وبدلاً من ذلك، ينظر إلى التواصل على أنه "ممتد مع الثقافة"، ولا يمكن فصله عن أنماط المعيشة والمعنى المشتركة في المجتمع.

ويعتمد موقف وينكين بشكل مباشر على الدعوة الرائدة التي وجهها Dell Hymes إلى أنثروبولوجيا الاتصال، فقد حث هايمز الباحثين على النظر في التعريفات "المحلية" للتواصل بما يتجاوز التحيزات الغربية الحديثة<sup>9</sup>، على سبيل المثال، في بعض ثقافات

السكان الأصليين التي درسها هايمز، يمكن فهم الرد على أنه "حديث" الآلهة إلى البشر، وتحمل الحجارة أو صرخات الحيوانات رسائل ضمن حوار كوني، كما يجادل هايمز بأنه يجب على العلماء دمج جميع الجهات الفاعلة ووسائل الإعلام التي ينسب إليها المجتمع نية التواصل - بغض النظر عن طبيعتها - في فهم التواصل الإنساني لذلك المجتمع على حد تعبيره، حيث يمكن لأي سلوك وأي شيء أن يكون تواصلًا، ونطاق إمكانيات التواصل أوسع بكثير مما يكشفه اهتمامنا اليومي بالكلام"، ويتبنى وينكبن هذا التعريف الموسع، ويفترض أن الكثير مما ترفضه النماذج التقليدية باعتباره سيافًا، أو خلفية غير لفظية، أو حتى صمتًا، هو في الواقع محمل بالمعنى، ويستشهد وينكبن بالمثل الذي قدمه عالم الأنثروبولوجيا راي بيردويستل بأن الهاتف الذي لا يرن قد يحمل رسائل كثيرة، ومن وجهة نظر وينكبن، تخلق الثقافة توقعات معينة، فعندما يفشل التفاعل المتوقع في الحدوث، فإن هذا الفشل ينقل شيئًا ما (في هذه الحالة، ربما رسالة رفض أو وحدة)، لذلك، فإن الاتصال "يشمل النظام والسياق الذي يجعل التفاعلات ممكنة"، وليس فقط محتوى الرسالة الصريح.

ومن خلال إعادة تعريف التواصل باعتباره "ثقافة في العمل"، يتوافق وينكبن مع رؤية جوفمان وبيتسون التي تقول إن كل تفاعل اجتماعي هو جزء لا يتجزأ من شبكة من القواعد غير المعلنة والاتصال ما ورائي **metacommunication**، على الرغم من أن مقال وينكبن لا يشير إلى جوفمان بالاسم، إلا أنه يتردد صدها بقوة مع مقاربة جوفمان للتفاعل الرمزي<sup>10</sup>، ففكرة أن السلوكيات وجهًا لوجه (الإيماءات، والمجاملات، وتبادل الأدوار، وما إلى ذلك) تدعم بشكل جماعي الحياة الاجتماعية كنوع من الأداء الطقسي، وتظهر دراسات جوفمان للقاءات اليومية (على سبيل المثال التحيات، وعدم الانتباه المدني، وعمل الوجه) أن الناس ينسقون باستمرار و"يرشدون بعضهم البعض" في التفاعل من خلال بروتوكولات ضمنية، تمامًا مثل أعضاء المجموعة الموسيقية الذين يتكيفون مع بعضهم البعض<sup>11</sup>، إن استعارة

وينكين المركزية لمصطلح "الأوركسترا" بدون قائد أو مقطوعة موسيقية تعكس هذا بشكل مباشر: يشارك أعضاء الثقافة في التواصل تمامًا مثل الموسيقيين في الأوركسترا، ويتوجهون بشكل متبادل إلى إشارات بعضهم البعض بدلاً من اتباع أمر أحادي الاتجاه، وتؤكد هذه الاستعارة أنه لا يوجد مشارك واحد يتحكم بشكل صارم في التبادل التواصلي؛ يظهر المعنى بشكل جماعي من خلال التفاعل بين جميع الحاضرين، ويستشهد وينكين صراحة بعمل جريجوري بيتسون باعتباره أساسًا فكريًا لمثل هذه النظرة المنهجية، وقد أكدت أبحاث بيتسون في مجموعة بالو ألتو على الاتصال باعتباره عملية مستمرة ومتعددة الطبقات في العلاقات الإنسانية، مليئة بالمفارقات و"التواصل ما ورائي" (رسائل حول كيفية تفسير الرسائل)، وبذلك، يضع وينكين "النموذج الأوركستراي" كبديل لنموذج النقل الآلي أي التحول من رؤية الاتصال كنقل خطي لتدفق المعلومات إلى رؤيته كنظام بيئي من الإشارات المعنوية التي تحيط بكل تفاعل.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن إعادة توجيه وينكين لنظرية الاتصال طموحة ولا تخلو من التحديات المحتملة، ومن خلال إعلانه أن "التواصل يتزامن مع الثقافة"، فإنه يوسع إلى حد كبير نطاق ما يجب دراسته، إلى حد جعل مفهوم التواصل واسعًا جدًا لدرجة أنه يخاطر بفقدانه الدقة، مما يطرح مشكلة حول ما إذا كان أي فعل أو شيء يمكن أن يحمل معنى، فكيف يتجنب الباحثون فوضى التحليل؟، ومع ذلك فإن قوة النموذج الأوركستراي تكمن في تسليط الضوء على القيود المفروضة على النماذج الكلاسيكية، فهو يجبرنا على اعتبار السياق والعلاقة والثقافة جوهرية في الاتصال، وليست إضافات اختيارية، فالتواصل لا يتعلق في المقام الأول بإرسال البيانات عبر الفضاء، بل يتعلق بالحفاظ على التماسك الاجتماعي وتنفيذ المعنى المشترك بمرور الوقت.

وليدعم مقارنة النموذج الأوركستراي، ويزيل إشكالية تحديد المعاني التي يمكن رصدها في التفاعلات الاتصالية، فإن إيف وينكن يقترح مسارًا منهجيًا معينًا، حيث يدعو لاعتماد

منهجية إثنوغرافية متميزة في بحوث الاتصال، فإذا كان التواصل يتخلل حقا جميع جوانب الثقافة، فيجب على الباحث أن يذهب إلى الميدان، مثل عالم الأنثروبولوجيا، لمراقبة التواصل "أثناء حدوثه" داخل بيئته الطبيعية، ويشير وينكين بوضوح إلى أن الطريقة الوحيدة لدراسة التواصل المباشر هي الملاحظة بالمشاركة، حيث يصبح الباحث حتما جزءا من "الأوركسترا" التي يدرسها، من جهة أخرى، يقترح وينكين العمل على بيانات صغيرة ومحددة جيدا، أجزاء حميمية "intimate slices" من الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون عادية مثل محطة قطار، أو شرفة مقهى، أو غرفة معيشة عائلية، أو مكان عمل، أو ملعب، وفي هذه الأوضاع، يتعين على الباحث مراقبة السلوك أثناء تطوره بشكل طبيعي وتسجيله بأكبر قدر ممكن من التفاصيل، وعادةً ما يكون ذلك من خلال الاحتفاظ بمذكرات ميدانية يومية.

ويصف وينكين الإثنوغرافيا بأنها "كفاءة ثلاثية" تتمثل في "معرفة كيفية الرؤية، وكيفية التواجد (مع الآخرين)، وكيفية الكتابة"، ويؤكد هذا على أن إثنوغرافيا الاتصال يجب أن تجمع بين الملاحظة الحادة، والانغماس الاجتماعي (بناء العلاقة وفهم المواقف بشكل حدسي)، والدقة الوصفية في تدوين الملاحظات، مما يتيح التقاط الديناميكيات الدقيقة للتفاعل، على سبيل المثال نبرة الملاحظة، أو رفع الحاجب، أو أنماط تبادل الأدوار، أو استخدام المساحة الشخصية، والتي قد تضيع في الاستطلاعات أو الإعدادات التجريبية، هذا الموقف المنهجي للباحث نجده مستمد من أعمال الباحثين الذي اسمد منهم نموذج الأوركسترا، حيث يعامل وينكين أي مجتمع أو مجموعة اجتماعية على أنها تمتلك قواعدها ومهاراتها التواصلية الخاصة، والتي يجب على العامل الميداني اكتشافها استقرائيا، فمهمة الباحث أشبه برسم خريطة لمنطقة أجنبية، أين يقوم بإعادة تشكيل الميدان الاجتماعي الذي يحدث فيه الاتصال، ومن خلال مراقبة التفاعلات اليومية بصبر، يستطيع عالم

الإثنوغرافيا استنتاج الرموز والمعايير والأنماط الضمنية "أنماط الثقافة" التي تدعم تلك التفاعلات.

ويضرب وينكين مثلاً بالعمل الميداني الذي قامت به ناتاشا آدم لمدة عام في مدرسة ابتدائية بلجيكية متعددة الثقافات، من خلال وضع نفسها بهدوء في الفصل الدراسي وساحة المدرسة يومًا بعد يوم، أين وثقت آدم كيف يقوم الأطفال من خلفيات مختلفة بالتواصل من خلال إهانات الملعب ("tu pues!" / "أنت كريهة الرائحة!") إلى رقصات "الزولو" العفوية التي تقودها فتيات أفريقيات، وقد كشفت أوصافها المكثفة لهذه التفاعلات التي تبدو تافهة عن كيفية عمل التواصل بين الثقافات على أرض الواقع، بل وسمحت حتى بالمقارنة مع الدراسات الأمريكية (وجدت أوجه تشابه مع النتائج التي توصل إليها كيدر وشيرلي برايس هيث في الولايات المتحدة)، هذه النماذج التي يذكرها وينكين في مقاله، تبرز كيف أن الدراسات المحلية الدقيقة بإمكانها أن تتناول قضايا عالمية: "العالمي هو في قلب الخاص" على حد تعبيره، وبعبارة أخرى، من خلال تشريح السلوكيات التواصلية الدقيقة في سياق واحد، يمكننا إلقاء الضوء على الأنماط والعمليات الاجتماعية الأوسع، وهنا يعترف وينكين بأن هذا نهج "متواضع" من حيث الحجم، فكل شيء يبدأ وينتهي بالبيانات الأولية، والملاحظات اليومية التي يدونها المرء، ولكنها أيضًا "طموحة" في هدفها النهائي، فهي تساهم في الفهم العلمي للثقافة في أثناء التفاعل.

أحد الانتقادات الموجهة لمنهجية وينكين الإثنوغرافية، هو أنها يمكن أن تستغرق وقتًا طويلًا للغاية وتظل النتائج المتوصل إليها خاصة بالتحديد بالسياق الذي وجدت فيه، بالرغم من أن العمل الميداني الشامل قد يسفر عن رؤى عميقة حول مجتمع أو موقف واحد، ولكن المتشككين قد يتساءلون عن مدى اتساع نطاق تطبيق هذه الرؤى، أو ما إذا كانت تفسيرية بشكل مفرط، ويتناول وينكين هذه المسألة من خلال تشجيع التفكير المقارن (ويستشهد بكيفية تشابه إحدى الدراسات المدرسية في لياج مع الدراسات التي أجريت في

أماكن أخرى)، ومع ذلك، يقع على عاتق عالم الإثنوغرافيا مسؤولية تمييز الأنماط المرصودة الفريدة ثقافيًا والتي تعكس ظواهر تواصلية أكثر عمومية، وعلى الرغم من هذه التحديات، فإن مساهمات وينكين المنهجية تكمن في الجمع بين دراسات الاتصال والممارسة الإثنوغرافية، وبالتالي تمكين الباحثين من التعامل مع التعقيد الكامل للتفاعل البشري الذي غالبًا ما تبسطه الأساليب الوضعية، حيث يتم التعامل مع التواصل كثيء يجب تجربته وتوثيقه في الموقع، وليس فقط قياسه من خلال الدراسات الاستقصائية أو التجارب.

خاتمة:

يقدم مقال إيف وينكين Vers une anthropologie de la Communication تحولًا عميقًا في كيفية تصورنا للاتصال الإنساني، ليس كمجرد أداة نقل للمعلومات، ولكن كأداء جماعي متأصل ثقافيًا، حيث يوجه نقداً حاداً للنموذج التلغرافي الكلاسيكي، ويقترح بدلاً منه النموذج الأوركستراي، أين يسلط وينكين الضوء على الطبيعة الديناميكية والتفاعلية للتواصل، حيث ينشأ المعنى من خلال الممارسات الاجتماعية المشتركة والمعايير الثقافية غير المعلنة، كما يكشف التحليل النقدي لهذا العمل عن الجذور النظرية القوية لوينكين والتي تتجلى في تقاليد باتيسون وجوفمان ومدرسة بالو ألتو، حيث يؤكد وينكين على أهمية المنهجية الإثنوغرافية في مراقبة تفاعلات الحياة الواقعية في البيئات الطبيعية، وذلك من أجل الكشف عن القواعد الضمنية التي تحكم التواصل. يشجع هذا النهج الباحثين على التعامل مع التفاعلات اليومية باعتبارها نصوصًا ثقافية غنية، تكشف عن "قواعد" السلوك البشري.

ومن الناحية العملية، أثر نموذج وينكين على الدراسات في مجال التواصل التنظيمي والشخصي والثقافي المتبادل، حيث قدم أدوات لتحليل المعنى الضمني والسلوك غير اللفظي والأنماط التفاعلية، والتي تعتبر تطبيقاتها ذات أهمية خاصة في السياقات ذات الطبيعة الرمزية، حيث يتشكل التواصل من خلال التقاليد الثقافية العميقة والرموز

الاجتماعية الدقيقة. ومن خلال اعتماد عدسة وينكين الأنثروبولوجية، ويمكن للباحثين أن يفهموا بشكل أفضل كيف يعمل التواصل كأداء حي للهوية والقوة والانتماء، وفي نهاية المطاف، يظل عمل وينكين ذا أهمية كبيرة في عالمنا اليوم المتعدد الثقافات والمتربط. وهو يدعو العلماء إلى إعادة التفكير في التواصل من خلال منظور حساس ثقافيًا ومتعدد التخصصات ومدرك للسياق - وهو نهج ضروري لكل من التقدم النظري والتطبيق في العالم الحقيقي.

المراجع:

### المراجع الخاصة بالمقال الأصلي

<sup>1</sup> D. Hymes, *The Anthropology of Communication*, dans FEX Dance (ed.), *Human Communication Theory : Original Essays*, Holt, Rinehart and Winston, 1967.

<sup>2</sup> D. Hymes, *op. cit.*

<sup>3</sup> N. Adam, *Comment le racisme vient aux enfants*. Mémoire de maîtrise en communication, Université de Liège, 1995.

<sup>4</sup> T. Kidder, *Among Schoolchildren*, Houghton Mifflin, 1989.

<sup>5</sup> S. Brice Heath, *Ways with Words. Language, Life and Work in Communities and Classrooms*, Cambridge University Press, 1983.

<sup>6</sup> Delalande, Julie. *La cour de récréation*. Rennes: Presses universitaires de Rennes, 2001.

### المراجع الخاصة بالمترجم

<sup>7</sup> Obœuf, Alexandre, Corinne Fantoni, and Loïc Lecroisey. “*Vers un modèle orchestral de la communication*”. In *Sport et médias*, edited by Alexandre Obœuf. Paris: CNRS Éditions, 2015. p. 114.

<sup>8</sup> Prujiner Alain. Yves Winkin (présentation) . *La nouvelle communication*, 1981, *Communication Information*, vol 4 n 2, 1982. p. 153.

<sup>9</sup> Johnstone, Barbara, and William M. Marcellino. *Dell Hymes and the Ethnography of Communication*, In *The SAGE Handbook of Sociolinguistics*, edited by Wodak, Ruth, Barbara Johnstone, and Paul Kerswill, 57-66. London: SAGE Publications, 2011, p. 61.

<sup>10</sup> Jacobsen, Michael H., and Søren Kristiansen. *Goffman's Sociology of Everyday Life Interaction*, In *The Social Thought of Erving Goffman*, 67-84, Social Thinkers. Thousand Oaks, CA: SAGE Publications, Inc., 2015, p. 67.

<sup>11</sup> Jacobsen, Michael H., and Søren Kristiansen. *Goffman's Sociology of Everyday Life Interaction*, In *The Social Thought of Erving Goffman*, 67-84, Social Thinkers. Thousand Oaks, CA: SAGE Publications, 2015, p. 73.